



يبدو التواجد العسكري الروسي المباشر في سوريا أساسياً لتحقيق أربعة أهداف رئيسية، هي إنعاش الجيش السوري وإنهاضه على قدميه باعتباره النواة المركزية للدولة التي يُراد المحافظة عليها، ومحاربة وإضعاف الفصائل المقاتلة التي تسعى لاقتلاع النظام في شكل جذري وخفض سقف مطالبتها، والاستفادة عن المعاونة الإيرانية المباشرة من خلال الميليشيات لإعطاء انطباع جديد عن الصراع ينأى به عن الانقسام الحاد السنّي الشيعي لخفيف حدة العداء للنظام في الإقليم، وأخيراً لضمان تنفيذ التزامات موسكو بإزاحة الأسد، وهو ما لن تكون قادرة على فرضه على عائلة الأسد ما لم يكن لها وجود مقرر على الساحة السورية. نحن إذًا أمام انخراط عسكري روسي في سوريا سواء قبلت خطة بوتين أو رفضت، فسيد الكرملين المبشر باستعادة روسيا دورها القطيبي في العالم لن يتراجع عما صرّح ولوّح به مهما كانت العواقب. فماذا ينتظر قواته على ضفة المتوسط الشرقي؟

ستلاقي القوات الروسية على تخوم مناطق سيطرة النظام نحوً من مئة ألف مقاتل يؤلفون بضع عشرات من التشكيلات المسلحة، التي لا تخضع لقيادة موحدة أو مرئية مركبة، وتخوض حرب عصابات متعددة البؤرة منذ نحو أربع سنوات، اكتسبت خلالها كافة أنواع الخبرات في هذا النمط من الصراعات، ويشكل افتقارها إلى بعض الأسلحة النوعية وعدم انتظام الدعم المالي أبرز العقبات على طريق استكمال عملها لإسقاط النظام، ويمكن للألة العسكرية الروسية أن توجه ضربة عنيفة بالأسلحة الاستراتيجية لتدمير البنية المادية وقواعد هذه التشكيلات، والقيام بهجمات محورية بالسلاح الثقيل على خطوط التماس لاختراق الجبهات العنيفة وتشتيتها، كما أن بمقدورها أن تقوم بعمليات إنزال مجوّل أو مظلي، في العمق الاستراتيجي للفصائل الإسلامية المعتمدة أو في مناطق سيطرة «داعش»، وانتزاع هدف سهل غير محسّن، يترافق مع برواباغندا إعلامية كبيرة. وماذا بعد؟!

إن جهل القوات الروسية بأرض المعركة، وغريتها الثقافية والاجتماعية، سترغم قواتها على التمركز في معسكرات معزولة ومحصنة، تحوم حولها الذئاب الجريئة، ذات الخبرة الطويلة في استغلال التغرات والتسلل عبرها وتوجيه الطعنات التي ستكون مهماً قل شأنها عظيمة الأثر إذا ما نظر إليها من زاوية التصعيد الدعائي لقوة ومنجزات المؤسسة العسكرية الروسية في أول عمل لها خارج إقليمها الأوروبي الشرقي، وستهزم هذه العمليات مع توادرها بعد استيعاب الصدمة الأولى، الإيمان بالعملية السياسية المرافقة والمتواخدة، ما سيدفع الروس لثبت موقفهم عبر الانخراط أكثر فأكثر في حرب أفراد، ستشكل مجرزة محققة للجند الروس بسبب عدم خبرتهم أو استعدادهم لهذا النوع القديم، لكن المحدث جداً، من أنواع القتال الذي تتقنه الفصائل المعارضة، والذي أعجز مئات الآلاف من جيش النظام السوري والميليشيات المتمردة التي حاربت معه.

وفي حال تلك بوتين أو راوح في إنجاز تعهداته بإزاحة الأسد، أو تعتن الأخير وتمسك بالسلطة، فإن مأذق القوات الروسية سيتفاقم لأن بين خصومهم من مقاتلي المعارضة السورية من سيحصل عند ذاك على دعم متزايد، سيكون بمثابة أداء ضغط لإرغامهم على الالتزام بتعهداتهم، وسيتحول الجنود الروس في الشرق رهينة في المفاوضات بين روسيا وخصومها الكثرون.

من ناحية أخرى، ستواجه روسيا مشكلة التدافع مع إيران التي اكتفت في كافة مراحل الصراع بدعم وصناعة قطاع الميليشيات في سوريا، أداتها المفضلة في اللعب إقليمياً، من لبنان إلى العراق فاليمن، وستواصل من دون شك عملية استقطاب عناصر النخبة بين مؤيدي النظام لمصلحتها، مما يعرقل ويفرغ جهود روسيا لإعادة بناء قطاع الجيش النظامي. ومع تغير عالياتها العسكرية، سيسرب عناصر ذلك الجيش لمصلحة الميليشيات التي يهيمن عليها اللوبي الإيراني، ولن تتمكن وبالتالي من إنشاء سند محلي قوي كما كانت تتوقع، وستبقى منفردة في الميدان وسط انشغال أنصارها بالصراع على النفوذ في المرحلة التالية.

وبخلاف ما تعلنه روسيا اليوم، فإن الحرب على التنظيمات المتطرفة كـ«داعش» و«النصرة» لن تستحوذ على نصيب كبير من اهتمامها، وسينصب جهدها العسكري في الحقيقة على محاولة تنظيف الساحة من الفصائل المعتدلة التي تمثل المنافس السياسي للنظام، وإخراج المشهد السوري في النهاية على أنه ميدان صراع بين الإرهابيين والنظام.

لذلك ستلتقي الفصائل المحية بدمشق تحديداً أقسى وأعنف الضربات، بواسطة الأسلحة الاستراتيجية الثقيلة، لإحداث نوع من الصدمة والتروع في صفوفها تدفعها للانهيار السريع، وستكون قدرتها على الصمود بعد تلقي الضربات الأولى، وتحويل الصراع تالياً إلى اشتباكات بالمجموعات الصغيرة والأفراد، نقطة الانقلاب في معطيات المعركة، وإعادتها إلى سياقها العام وهو نمط حرب العصابات، حيث لا نتائج حاسمة فيه، وعندما لا يحسم الروس فهذا يعني أنهم هزموا.

وستدفع وضعية مواجهة الآلة العسكرية الروسية الضخمة جميع الفصائل للتوحد أو التنسيق تحت شعار وطني هو مقاومة الغزو الروسي، ما سيعزز مكانتها السياسية والشعبية وينحها شرعية لم تستطع تحصيلها حتى اليوم بسبب التباس صراعها بالبعد الديني المذهبي.

بلا أدري، سيمنح التدخل الروسي بشار الأسد مزيداً من الوقت في السلطة ولا شك، لكنه في الوقت عينه حدد موعد رحيله الذي سيعمل الكثير من الأطراف على التعجيل به، وهو لحظة مغادرة الطائرات الروسية سماء سوريا.

المصادر: